كان موقفهم شراعا ...

بقلم حسين مروّة

ان يخذل مؤتمر الادباء العرب ، في تونس ، دعوة لنصرة حرية الفكر ، وحماية هذه الحرية ، في البلدان العربية — امر مؤسف ، موجع ، مذهل .

وان يكون صوت اتحاد الكتاب اللبنانيين في المؤتمر ، هو صوت هذه الدعوة ، ان يكون اتحاد كتابنا اللبنانيين ، هو هذا الفدائي الشجاع الجسور المقاتل في ساحة المؤتمر وحده لنصرة حرية الفكر ، لحماية حرية الفكر من اعدائها « الجدد » والقدماء في ما بين « الخليج والمحيط » ان يكون وحده الجبهة الساخنة في جبهة « اللاحرب واللاسلم » الجليدية — كل ذلك هو الامر الآخر من المسالة ، هو الوجه الآخر الذي تستقبلنا به المسالة لتطرد عنا وحش الاسف والوجع والذهول . هو الموقف الآخر الذي نهض في المؤتمر شراعا يجلد بجناحيه تفاهة المستنقع اللزج ، ويدفع الريح دفعا الى بحيرة السكون الخانع ، ويقتحم جليد الصمت البليد المتراكم . الصمت حيال انتهاكات شرف الانسان ، في اكثر من بلد عربي ، « من الخليج الى المحيط » ، في هذه الايام على الاخص .

نقول : في هذه الايام على الاخص ، اي في هذه اللحظة من زمان المحنة العربية التي طالت ، ويريدونها ان تطول قدر ما يستطيعون ، هذه اللحظة ذاتها التي يتحرك فيها جبل الصبر ، يتحرك من أبعد اغواره يتحرك .

« هم » يعرفون ان جبل الصبر يوشك ان ينفجر و « هم » — لانهم يعرفون ، ولانهم خائفون — نراهم « يزرعون » في جلودهم المرتعشة ، من الرعب ، ريش « النسور » لعل الوهم ينفخ في « الجراب » قوة النسور . حتى الذعر المرتعش في جلودهم يتوهم ان تكسير الاقلام ، وحبس الافكار ، وذبح الثوار ، وكبح طماح الثورة في الجماهير ، وقمع انطلاقاتها الى ما وراء الليل الطويل — حتى الذعر المرتعش في جلودهم يتوهم ان هذا كله يمكنه ان يمنع جبل الصبر المتحرك ، ان يتحرك ، وان ينفجر .

انتهاكات شرف الانسان ، في اكثر من بلد عربي ، تجري ، هذه الايام ، صنوفا واشكالا ، بعضها قديم « مجرب » ، وبعضها جديد « يجرب » . ولكن ، بين هذه وتلك نجد دائما قضية الفكر ، قضية حرية الفكر والقلم ، تتخذ شكلها « الثابت » : اما كسر اليد والقلم ، اذا اصر الكاتب او المفكر ان يظل صديقا لشرف الانسان ، اي صديقا لمطامح جماهير شعبه في الديموقراطية الحقيقية : ديموقراطية هذه الجماهير ذاتها ، لا ديموقراطية سارقي خبزها وآكلي لحم سواعدها .

واما مسخ اليد والقلم ، اذا « رضي » الكاتب او المفكر ان يبيع بـ « الفضة الثلاثين » صداقته لشرف الانسان ، اي صداقته لمعنى شرف الكلمة ومعنى شرف الحرية ومعنى شرف الفكر . فهو حين « يرضى » هذا « الرضى » — العار ، انما تنمسح يده فرشاة لجبة السلطان ، وينمسح قلمه ريشة لتجميل وتلميع لاظافر — اظافر السلطان — وهي « تفرم » شرف الانسان .

ان يكون صوت اتحاد الكتاب اللبنانيين وحده الذي اقتحم جليد الصمت في مؤتمر الادباء العرب : الصمت حيال انتهاكات كرامة الفكر والقلم وحريتهما في اكثر من بلد عربي ما بين « المحيط والخليج » — ذلك امر يحمل الف معنى ، ويستثير الف سؤال .

لندع ، الان ، كل معنى وكل سؤال يتصل بصمت الآخرين . ولنكن ، الان ، مع الصوت الذي وحده حطم الجليد ، وخرج ، وما خرج انهزاما بل اندفاعا الى حيث نهر الحياة « يجري » بعيدا عن دائرة « الجليد » .

وهنا سؤال وحيد الان .

من اين يستمد اتحاد الكتاب اللبنانيين قدرة الاختيار الصحيح في مثل موقفه الشجاع من مسالة الحرية ؟

هنا منبعان أصيلان لمثل هذا الموقف : اولهما ، تراث كفاحي فكري يصل بين شبابنا الوطنيين وجيل الكتاب والمفكرين اللبنانيين طلائع النهضة العربية الحديثة ، ومن سار مسيرتهم بعد ، جيلا اثر جيل . تراث جوهره الاساسي : عشق الحرية حتى الفداء ، وان حرية لبنان وحرية سائر بلاد العرب واحدة ، لا اثنتان .

اما المنبع الثاني ، فهو تراث كفاحي شعبي تكدس ، كميا ونوعيا ، في معارك النضال المتصلة منذ اجيال بعيدة حتى هذا الجيل : اما في كسب حرية مسلوبة ، واما صيانة حرية مهددة بالاستلاب ، كما هي معركة شعبنا في لبنان اليوم .

ان جوهر التراثين واحد . انهما ينصهران الان معا في المعركة اللاهبة ، هذه الايام ، على الصعيد اللبناني ، دفاعا عن حريات انتزعها شعبنا أقساطا في مدى اجيال طوال ، وانبتها في ترابه الوطني اغراسا من الدم والعرق .

ان روح هذه المعركة بالذات ، بكل ما ينصهر في لهيبها من وهج التراث الكفاحي ، كان يرافق وفد اتحاد كتابنا الشجاع الى مؤتمر الادباء العرب في تونس ، وكان يلهمه : ان حرية الفكر لا تتجزأ . ان حرية العرب لا تتجزأ . ان حرية الشعوب لا تتجزأ . ان الكفاح لحرية الانسان ، هو معنى شرف الانسان .

حسين مروه